الكنعانيون: أصولهم المكانية، وحدودهم الجغرافية، ومشهدهم الاجتماعي-السياسي خلال العصور البرونزية (3600-1200 ق.م)

The Canaanites: Their spatial origin, geographical borders, and sociopolitical landscape during the Bronze Ages (3600-1200 B.C.E)

صلاح الهودلية

Salah Al-Houdalieh

المعهد العالي للآثار، جامعة القدس، أبو ديس، فلسطين

Higher Institute of Archeology, Al-Quds University, Abu Dis, Palestine

الباحث المراسل: shoudalieh@staff.alquds.edu

تاريخ التسليم: (2021/3/28)، تاريخ القبول: (2021/7/28)

ملخص

تتناول هذه الدراسة سكان منطقة جنوبي بلاد الشام (بلاد كنعان) خلال العصور البرونزية بالبحث والتحليل، وذلك بالاعتماد على الشواهد الأثرية المادية المختلفة التي تم الكشف عنها في بلاد الشام نفسها وفي دول الجوار على حد سواء. وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أربعة مواضيع رئيسة، هي: (1) تسميات هذه المنطقة، والأصول المكانية والعرقية لسكانها (2) . الرقعة الجغرافية التي ساد فيها الكنعانيون، وحدودهم الجغرافيّة مع دول الجوار. (3) طبيعة المشهد الاجتماعي الذي ساد في هذه المنطقة وما ترافق معه من الانتقال من نظام القبيلة البسيط إلى النظام المدني المعقد الذي أفرز نشوء الدويلة-المدينة. (4) تعقيدات المشهد السياسي الذي امتازت به بلاد كنعان بسبب غياب التوحيد السياسي، بالإضافة إلى أطماع دول الجوار، وخصوصاً الدولة المصريّة الحديثة. وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن بلاد كنعان كانت ذات حدود جغرافيّة تتمدد تارة وتتقلص طوراً آخر، وأن الكنعانيين أصيلين في بلاد الشام ويشكلون امتداداً طبيعياً لسكان نفس المنطقة من العصر الحجري الحديث. وقد تم الاعتماد في كتابة هذا البحث على مراجعة الأدبيات ذات العلاقة، ولكن تم استثناء النصوص التوراتية منها.

الكلمات المفتاحية: جنوبي بلاد الشام، أرض كنعان، الكنعانيون، العصور البرونزية.

Abstract

This present study focuses on the inhabitants of the southern Levant (Canaan) during the Bronze Ages, based on a variety of physical

archaeological evidence that has been uncovered both in the Levant itself and in neighboring lands. The aims of this study are fourfold: (1) to present the names of this region known to us from surviving written sources dated to the second and first millennia BCE, and to identify the spatial and ethnic origins of the Canaanites; (2) to identify the geographic borders which the neighboring peoples observed in relation to Canaan; (3) to present the Canaanites' social landscape and its manifestations in the emergence and ultimate prevalence of the city-state system throughout the region; and finally, (4) to demonstrate the political complexities that prevailed in the southern Levant during the Bronze Ages. This study pointed the author to two main conclusions: (a) that the Canaanites were native to the southern Levant and can be seen as a natural extension of the population that had inhabited the region during the Neolithic period, and (b) that the functional geographic borders of Canaan changed repeated over time, witnessing several expansions and contractions. The methodology implemented in this study consists of a review and analysis of the existing scholarly literature related to this subject; biblical texts, by their very nature, were not included in the study.

Keywords: History of Art, Architecture, and Archaeology.

مقدمة

شهدت منطقة الشرق القديم على وجه العموم، وبلاد الشام على وجه الخصوص، خلال منتصف الألف الرابع قبل الميلاد انعطافة واسعة في الميادين السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، والمعماريّة حيث تأصلت الكيانات السياسيّة في نظام الدويلة-المدينة؛ وتحولت المجتمعات من نمط حياة بسيط إلى آخر معقد سيطرت عليه السلطة الدينيّة والمدنيّة ممثلة برجال الدين والملوك/ الحكام؛ وانتعش الاقتصاد القائم على الزراعة، وتدجين الحيوانات والرعي، والتجارة، والصناعة؛ وتم اختراع الكتابة بطورها الصوري ومن ثم الرمزي، التي تطورت لاحقاً إلى الكتابة الهجائية؛ كما نشطت الحالة العمرانيّة لتشتمل على التحصينات الدفاعية، والأبنية المدنيّة والدينيّة كبيرة المساحة نسبياً. وقد أطلقت هذه التسمية "العصور البرونزيّة" بسبب اختلاف المكونات الماديّة والثقافيّة لهذه العصور عن سابقتها ولاحقتها، ولاستخدام الإنسان حينذاك معدن البرونز (خليط من النحاس والقصدير) لصناعة بعض من أدواته وأوانيه ذات الاستخدام اليومي، علماً بأن تعدين البرونز لم يبدأ بشكل فعلي إلا مع نهاية العصر البرونزي المبكر (كفافي، 2011، ص 175). ويُطلق على هذه العصور أيضاً اسم "الآثار الكنعانيّة" (كفافي، 2019، ص 12)، وعصور المدنيّة الأولى (إبراهيم، 1990، ص 58؛ ياسين، 1991، ص 11).

تشير نتائج الأعمال الأثريّة الميدانية إلى أن منطقة شمالي بلاد الشام (شمال سوريا وشمال لبنان) خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد كانت واقعة تحت تأثير حضارة الوركاء التي نشأت بالأصل في جنوبي بلاد ما بين النهرين/ بلاد الرافدين (العراق). ويظهر هذا التأثير من خلال المخلفات المادية المتنوعة التي عثر عليها في منطقة سد الطبقة، وموقع حبوبة كبيرة، وحماة، وحمام التركمان، بالإضافة إلى مواقع أخرى في منطقة الجزيرة، وحوض الخابور، وسهل العمق، وسهل البقاع. وبناءً عليه، فقد عزا بعض الباحثين هذا التأثير إلى أن الرافديين (نسبة إلى بلاد الرافدين) قاموا بتأسيس مراكز تجارية في منطقة شمالي بلاد الشام، وعاشوا فيها جنباً إلى جنب مع السكان المحليين؛ وعزاه البعض الآخر إلى غزو النتاج الحضاري الرافدي بمعظم عناصره لهذه المنطقة وأسدل عليها صبغته دون أن يكون ثقلاً بشرياً رافدياً كبيراً فيها، بمعنى أن انفتاح سكان هاتين المنطقتين على بعضهما عن طريق التجارة والهجرات السلميّة هو السبب الرئيس في تكوّن هذه الحالة، التي يمكن الاصطلاح عليها بالغزو الثقافي. كما وتشير نتائج الأعمال الأثريّة الميدانيّة إلى أن منطقة جنوبي بلاد الشام، التي تبدأ من مدينة جبيل الواقعة على الساحل اللبناني شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً، كانت خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد واقعة تحت التأثير المصري. وقد عُزي هذا التأثير إلى الانفتاح التجاري بينهما؛ وإلى تنامي الأطماع السياسيّة، والاقتصاديّة، والأمنيّة المصريّة في هذه المنطقة. وفي الوقت الذي كان فيه سكان منطقتي بلاد الشام بشمالها وجنوبها منفتحين على حضارات دول الجوار فإنهم كانوا أيضا على اتصال وتواصل دؤوب مع بعضهم بدليل التشابه في شكل وطريقة تصنيع الآنية الفخاريّة، وفي تخطيط العمائر المدنيّة والدينيّة، عوضاً عن التشابه في العقيدة الدينيّة وطرق ممارسة شعائرها وطقوسها. وقد سكن منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصور البرونزية عدة كيانات اجتماعيّة، مثل: الكنعانيين، والأموريين، والحوريين، والحثيين، والمصريين؛ إلا أن الكنعانيين كانوا العنصر البشري الرئيس لسكان هذه المنطقة (كفافي، 2011، ص 176-186، 252-255، 326). ولهذا، يتم التركيز في هذا المقال على الكنعانيين.

تناول كثير من الباحثين في العقود العشرة الأخيرة موضوع الكنعانيين ونتاجهم المادي خلال العصور البرونزية؛ ويبدو بأن كثيراً منهم رسم صورة ضبابية عن أصولهم المكانيّة والعرقيّة، وحدودهم الجغرافيّة، ودورهم السياسي المحلي والإقليمي؛ بل ذهب بعضهم إلى التشكيك بوجود كيان عرقي يعرف باسم "الكنعاني" أسوة بالكيانات العرقيّة في دول الجوار. وبالمقابل، فقد لوحظ في العقود الأربعة الأخيرة تزايد في عدد الكتابات التي تُظهر كنعان (كأرض)، والكنعانيين (كشعب) في إطار زمنكاني (زماني ومكاني) بنتاج فكري ومادي يتشابه مع نتاج حضارات دول الجوار تارة، ويختلف عنها طوراً آخر.

يُصنِف الآثاريون منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصور البرونزيّة إلى ثلاثة عصور، هي: العصر البرونزي المبكر الأول حتى الرابع (EBI-IV) (3600-2000 ق.م) (Muniz, 2007, xxix)، والعصر البرونزي المتوسط بمرحلتيه الاثنتين (MBIIA-IIB-C) (2000-1550 ق.م)، والعصر البرونزي المتأخر بمرحلتيه الاثنتين (LBI-II) (1550-1200 ق.م). والجدير

بالذكر بأن بعض مراحل هذه العصور تقسم إلى فترتين فرعيتين أو ثلاث (كفافي، 2011، 184، 247، 319).

الكنعانيّون: وافدون أم محليّون

بالمقارنة مع المصريين، والبابليين، والآشوريين، والحثيين فإن الكنعانيين لم يتركوا إلا القليل من الكتابات التي تساعدنا على فهم نمط حياتهم اليومية، ومؤسساتهم الاجتماعية، وعلاقاتهم الخارجية، وتعاملاتهم التجارية، وعقيدتهم الدينية، وتقاليدهم الأدبية، وأساطيرهم، وأصولهم العرقيّة، وحدودهم الجغرافيّة. ولهذا، فإن معظم الباحثين في الشأن الكنعاني قد ركزوا على دراسة المادة الحضارية التي خلفّوها وراءهم، والبعض ركز على دراسة الوثائق المعاصرة لهم والتي عثر عليها في دول الجوار (Tubb, 1998, p. 9)، أو على نصوص التوراة (Albright, 1971).

ورد اسم العلم "كنعان" واسم النسبة "كنعاني" في نصوص وادي الرافدين، وبلاد الأناضول، وشمال سوريا، ومصر. وظهر هذا الاسم بصيغة العلم والنسبة لأول مرة في وثائق تل الحريري التي تعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم اختفى ليعود من جديد في وثائق مصريّة وشاميَة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وتكرر كثيراً خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وخصوصاً في رسائل تل العمارنة (إبراهيم، 1990، ص 4، 99-103؛ كفافي، 2019، ص 11). ويعتقد كثير من الباحثين بأن "كنعان/ كنعاني"، وبالتالي الكنعانيون: هو اسم مشتق من الجذر اللغوي الثلاثي "كنع" الذي يعني الأرض المنخفضة، أو الأرض التي تغيب الشمس في أفقها الغربي (Buck, 2019, p. 2). وعُرف الكنعانيون عند الأكاديين باسم "كناجي" أو "كناخني"، للدلالة على اللون الأحمر الأرجواني؛ وعند المصريين باسم "بي-كنعان" للدلالة على المناطق الجنوبية - الغربية من سوريا الكبرى (الماجدي، 2001، ص 12-13؛ Hasel, 2009)، وكذلك باسم خارو (Kharu) وريتينو (Retenu) وزاهي/ جاهي (Djahy) (Hasel, 2009)؛ وعند الحوريين باسم "كناخو" للدلالة على الصبغة الأرجوانيّة (Buck, 2019, p. 2)؛ وعند الأوغاريتيين والفينيقيين البونيين باسم "كنعن" (كفافي، 2011، ص 254)، ومن المعتقد بأن أصل تسمية الكنعانيين بهذا الاسم جاءت من الحوريين (Buck, 2019, p. 2).

وطرحت العديد من الفرضيات حول الأصول المكانية للكنعانيين، نعرض منها خمساً، فتنص الفرضية الأولى (وهي السائدة في أوساط الباحثين) على أنهم هاجروا بادئ الأمر من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال الشرقي لسوريا، ومن ثم انتشروا تباعاً على بقيّة بلاد الشام، ولكن ثقلهم السكاني كان في فلسطين ولبنان. وتشير الفرضية الثانية إلى أن موطنهم الأصلي كان في سواحل الخليج العربي وجنوب العراق. أما الفرضيات الثلاث الأخرى فتتمحور حول أنهم جنوبيون قدموا إلى بلاد الشام إما من سواحل البحر الأحمر، أو مصر، أو من منقطتي سيناء والنقب (الماجدي، 2001، ص 16-18). وبهذا، فإنه من الملاحظ وجود حالة من عدم الاتفاق على أصلهم المكاني في ظل الإجماع على أنهم دخيلون على الجغرافيا الشاميّة. وفي هذا الخضم، فإننا نعتبر هذه الفرضيات مجافية للحقيقة، ونرى بأنهم كانوا بمثابة همزة الوصل لسكان بلاد الشام بين عصور ما قبل التاريخ

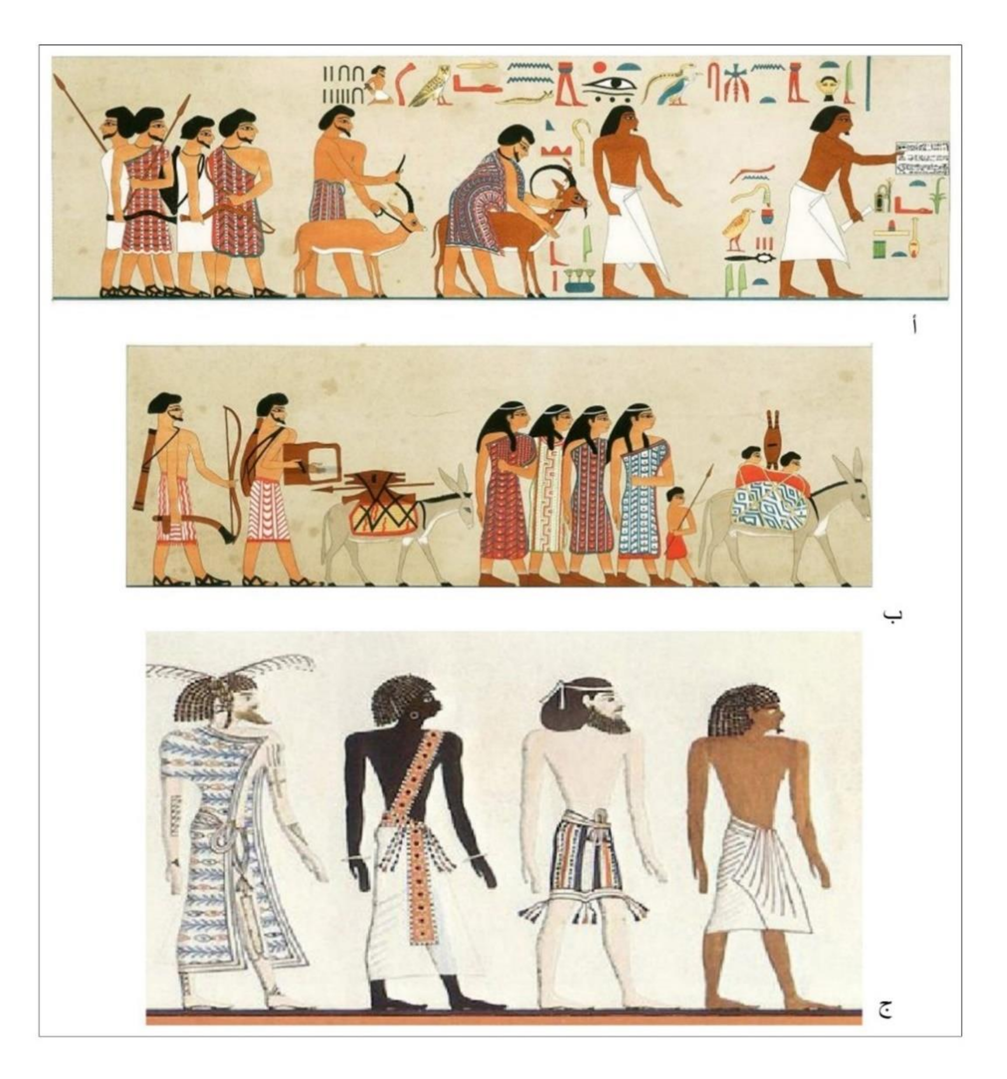
والعصور التاريخية الأولى، بمعنى أنهم شكّلوا امتداداً طبيعياً لسكانها منذ العصور الحجرية المتأخرة؛ بدليل أن جغرافية هذه المنطقة لم تشهد زيادة مفاجئة وملحوظة في عدد سكانها مع بداية العصر البرونزي المبكر؛ وأن كثيراً من القرى التي كانت مأهولة خلال العصر الحجري النحاسي قد استمر السكن فيها دون انقطاع خلال المراحل الأولى – على الأقل – من العصر اللاحق؛ عوضاً عن استمرار بعض من الطرز المعمارية المدنيّة والدينيّة، وأشكال المدافن، وأشكال الآنية الفخاريّة. وفي السياق ذاته، يرى كل من ياسين وكفافي بأن ثقافة المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر (EBI) تشكل امتداداً طبيعياً لثقافة العصر الحجري النحاسي مع وجود بعض الاختلافات التي يمكن فهمها ضمن التطورات الطبيعية في السياق الزمني (ياسين، 1991، ص 8؛ كفافي، 2011، ص 185). وقد أكد توب على هذا الرأي بقوله: إنه من الممكن تعريف الكنعانيين بأنهم السكان الأصليين لبلاد الشام القديمة الذين انحدروا من سلالة سكان القرى التي انتشرت على أرجاء المنطقة خلال الألف الثامن قبل الميلاد (العصر الحجري الحديث)، آخذين بعين الاعتبار وجود تأثير خارجي على مكونات حضارتهم من خلال التبادل التجاري، أو هجرات مجموعات بشرية إليها على نطاق محدود، أو نتيجة غزو عدواني (Tubb, 1998, p. 13-14). ومن جهته، فقد أكد جولاني على هذا الرأي بالاعتماد على نتائج الأعمال الأثريّة الميدانيّة في منطقة عسقلان التي أظهرت استمرار وجود البيوت المستطيلة (broad room)، والمنحنية (curvilinear)؛ واستمرار بعض الأشكال الفخارية وتقنية تصنيعها وأنماطها الزخرفيّة؛ واستمرار تقنية تصنيع بعض أشكال الأدوات الصوانية، مثل: الشفرات المظهرة (backed blades)، وشفرات المناجل المظهرة؛ واستمرار تقنية تصنيع وزخرفة الصحون البازلتيّة؛ واستمرار تصنيع الأدوات والأواني النحاسيّة؛ وعلى استمرار بعض طرز الدفن، مثل: الدفن في الحفر الأرضيّة، والكهوف، بالإضافة إلى الدفن الثانوي في الجرار. وبهذا، فإن جولاني يرى بأن إنسان المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر في منطقة جنوبي بلاد الشام، والذي شكل حجر الزاوية لبقيّة العصور البرونزيّة في المنطقة نفسها، كان متأثراً جداً بما ورثه عن سلفه؛ وأن التغيرات التي طرأت على المادة الحضاريّة المؤرخة إلى الفترة الانتقاليّة بين العصر الحجري النحاسي والمرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر ليس بالضرورة أن تقودنا إلى الاعتقاد بوجود كيانين اجتماعيين منفصلين عاشا بالتتالي على نفس الأرض. وقد عزا جولاني جملة التغيرات على المادة الحضاريّة لهذه المرحلة في منطقة جنوب-غرب فلسطين إلى استجابات الإنسان الممتدة جذوره في العصر الحجري النحاسي للتغيرات البيئية، وللزيادة الطبيعية في عدد السكان، وللتطور التقني في مختلف الصناعات، ولاتصاله وتواصله مع حضارات دول الجوار (Golani, 2013, p. 100-107).

وبالإضافة إلى الدراسات المتعددة التي ركزت على المادة الحضاريّة بهدف التعرف على الأصول المكانيّة للكنعانيين، فقد أجريت دراسات عدة على هياكل عظمية بشريّة تم العثور عليها في مواقع مختلفة بهدف التعرف على تاريخها الجيني وعلاقته بسكان منطقة الشرق القديم؛ نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر – أربع دراسات. تكونت الدراسة الأولى من خمس عينات تؤرخ إلى العصر البرونزي المتوسط عثر عليها في صيدا (لبنان)؛ وركزت الدراسة الثانية على

ثلاث عينات تؤرخ إلى العصر البرونزي المتوسط – المتأخر عثر عليها في عسقلان (فلسطين)؛ واشتملت الدراسة الثالثة على عينتين فقط تؤرخان إلى العصر البرونزي المتأخر عثر عليهما في تل شدود (Shadud) (فلسطين)؛ أما الدراسة الرابعة فقد اشتملت على ثلاث وسبعين عينة تؤرخ إلى العصر البرونزي المتوسط حتى بداية العصر الحديدي والتي عثر عليها في تل المتسلم (Megiddo)، وتل وقاص/ القدح (Hazor)، والعباسيّة (Yehud)، وتل أبي القمح (Abel Beth Maacah) (فلسطين)، والبَقعة (الأردن). وقد أشارت نتائج الدراسات الثلاث الأولى إلى أن التاريخ الجيني لهذه العينات مرتبط مع السكان الأصليين لمنطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصر الحجري الحديث ومع مجموعات بشرية كانت تسكن في جبال زاغروس خلال العصر الحجري النحاسي. أما الدراسة الرابعة، فقد أشارت نتائجها إلى أن الأفراد الذين تم أخذ عينات منهم متشابهون وراثياً مع وجود بعض الاختلافات؛ وأنهم جينياً مزيج من السكان المحليين الذين عاشوا في جنوبي بلاد الشام خلال العصر الحجري الحديث مع مجموعات عاشت في جبال زاغروس خلال العصر الحجري النحاسي، وأن هذا المزج الجيني ربما حدث عبر القوقاز؛ وإلى أن الشيفرة الوراثيّة لأكثر من نصف سكان جنوبي بلاد الشام الحاليين مرتبطة بالجين الذي كان سائداً في المنطقة نفسها خلال العصور البرونزيّة (Agranat-Tamir, *et al*, 2020, p. 1146-1154).

الحدود الجغرافيّة

تبنى كلٌّ من ليمكه ووتنبيرغ فرضية مفادها أن بلاد كنعان بجغرافيتها ظهرت بشكل غامض في النصوص الكتابيّة من العصور البرونزيّة، وأن الكنعانيين لم يكن لديهم فكرة واضحة عن مساحة بلادهم، ولم يكونوا على معرفة بحدودها الفاصلة مع دول وممالك الجوار. وذكرا بأن مصطلح كنعان/ كنعاني في ثقافة سكان المناطق المجاورة لهم كان يرمز إلى الأجنبي أو الغريب، وإلى الأرض التي تقع خارج مناطق نفوذهم السياسي. وبالتالي، فإن الكنعانيين حسب فرضيتهم لم يُشكّلوا كياناً عرقياً، وإنما كانوا أعضاءً في نظام اجتماعي وسياسي (Lemche, 1991, p. 39, 52; Wittenberg, 1991). وبالمقابل، تبنى علماء كثيرون – منهم نَعمان وفنكلشتاين – فرضية أخرى تفيد بأن بلاد كنعان كانت كياناً سياسياً ذا حدود سياسيّة متعارف عليها مع دول وممالك الجوار، وأن غالبيّة سكان هذا الكيان كانوا متجانسين عرقيّاً وتربطهم صلة الدم، بمعنى أنهم كانوا يشكلون مجتمعاً ينحدر من أصل واحد (Na'aman, 1994; Finkelstein, 2013)؛ حتى أن هيئتهم الجسديّة ولباسهم يختلف عن سواهم (شكل 1).



شكل (1): (أ) و (ب) جزء من لوحة جدارية من مقبرة رقم 3 في بني حسن (مصر) تؤرخ إلى العصر البرونزي المتوسط. أ: رجال كنعانيون بلباسهم التقليدي يتقدمهم رجلان مصريان؛ ب: نسوة وأطفال ورجال كنعانيون بلباسهم التقليدي؛ ج: لوحة تظهر من اليمين إلى اليسار: مصري، وكنعاني، ونوبي، وليبي (Buck, 2019, Fig. 2.4, and Fig. 2.6).

على الرغم من عدم وجود خريطة أو وثيقة جغرافيّة مفصّلة وشاملة من العصور البرونزيّة توضح حدود بلاد كنعان مع دول الجوار وممالكها، إلا أن العديد من الكتابات المصريّة، وبلاد الشمال السوري، والدويلات - المدن الكنعانيّة تعطي فكرة واضحة عن حدودها المحتملة (Kennedy, 2013, p. 30). حيث تذكر مسلة مرنبتاح أسماء عدة مدن كنعانية، منها: عسقلان، وغزة، وجزر/ جيزر، وينوعم/ يانوح (Yeno'm)(Singer, 1988, p. 3)، ويظهر في قوائم الطبوغرافية المصرية اسم مدينتين كنعانيتين أُخريين (شكل 2)، هما: شاروهين (ربما الفارعة الجنوبي، أو غزة)، ورابيا (من المحتمل أنها رفح) الواقعة إلى الجنوب من غزة (Na'aman, 1994, p. 405)، ومن المحتمل بان هاتين المدينتين كانتا تشكلان الحدود الجنوبيّة لبلاد كنعان. كما وتذكر قوائم الملك تحتمس الثالث بان طبقة فحل، وتل السعيدية كانتا مأهولتين بالكنعانيين (Bienkowiski, 1989, p. 61). بالإضافة إلى ذلك، فإن وثيقة من فترة حكم الملك ستي الأول تظهر بأن طبقة فحل، والحمة (Hammath) الواقعة في الجليل واقعتان في أرض كنعان (Rainey, 1996, p. 8). ويتضح من رسالة موجهة من عزيرو (ملك الأموريين) إلى الملك المصري في فترة العمارنة بأن منطقة أمورو، وكذلك مدينة جبيل كانتا ضمن الحدود الكنعانيّة، وأن مدينة لبوة كانت على الحدود الكنعانيّة الشماليّة (Maisler, 1986, p. 198).



شكل (2): أهم المواقع الأثرية الواردة في البحث، رسم إبراهيم إقطيط.

وتذكر وثائق بلاد الشمال السوري كنعان (كأرض) وكنعانيين (كشعب)، وعمدت إلى ذكر بعض من مدنهم الشماليّة بالاسم (Rainey, 1963, p. 43). وتشير وثائق مملكة تل العطشانة (الالاخ) إلى أن أرض كنعان هي كيان جغرافي يقع خارج حدودها (مرعي، 2000، ص 36-37، 42). وبالاعتماد على وثيقة عثر عليها في راس شمرا (أوغاريت) تعنى بتاجر كنعاني تم ذكره بطريقة وكأنه أجنبي، فإنه من المحتمل بأن راس شمرا في ذلك الوقت لم تكن جزءاً من أرض كنعان (Rainey, 1963, p. 43-45).

وتعد النصوص الكنعانيّة المكتشفة في عدة مدن شاميّة من أكثر الشواهد التاريخيّة فائدة في تتبع حدود الأرض الكنعانيّة خلال العصر البرونزي المتأخر. ووفقاً لهذه النصوص فإن بلاد كنعان شملت منطقة واسعة من فلسطين التاريخيّة، والأردن، وسوريا، ولبنان (Buck, 2019, p. 6). تشير رسالة موجهة من ملك دمشق إلى الفرعون المصري من فترة العمارنة بأن مدينتي دمشق وكامد اللوز (Kumidi) هما كنعانيّتان تقعان في المنطقة التي تسيطر عليها مصر، وأنهما تقعان بالقرب من الرقعة الجغرافيّة التي تسيطر عليها الدولة الحثيّة، وتشير رسالة ثانية من نفس الفترة الزمنية إلى أن مدينة روهيزا (Ruhizza)- والتي تقع بالقرب من دمشق – هي أيضا مدينة كنعانيّة. وبالتالي، فإنه يمكن الاستنتاج بأن دمشق وروهيزا كانتا تقعان بالقرب من الحدود الشمالية الشرقية لبلاد كنعان، وأن كامد اللوز كانت تقع في منتصف حدودها الشمالية (Moran, 1992, EA 1-8 :191 EA ;151 EA ;13-31 :197). هذا بالإضافة إلى أن عدداً من النصوص من فترة العمارنة ذكرت مدناً كنعانيّة يعتقد بأنها كانت حدوديّة، مثل: صور، وصيدا، وجبيل، وبيروت، وعكا، وغزة، وقنوات (Qanu) (Moran, 1992, EA 8: 13-21; EA 131: 57-62; EA 204: 1-20; EA 296: 30-36). وبالتالي، فإن النصوص الكنعانيّة توفر لنا معلومات تقريبيّة عن حدود بلاد كنعان خلال العصر البرونزي المتأخر، ويرى كندي بأنها كانت تمتد من جبيل وكامد اللوز في الشمال، ودمشق وروهيزا في الشمال الشرقي حتى قنوات ومن ثم إلى الحدود الجنوبيّة الشرقيّة للبحر الميت حتى تصل إلى جنوب غزّة (Kennedy, 2013, p. 34)، ولكن بَك رأت بأن حدودها الشرقيّة والجنوبيّة كانت أوسع مما طرحه كندي لتشتمل على المنطقة الممتدة حتى التخوم الغربيّة لصحراء أرض الصوّان في الأردن وعلى منطقة النقب كلها (Buck, 2019, Fig. 1.2).

وبناء على ما وفرّته النصوص الكتابيّة القديمة ذات الصلة، وعلى ما قدمه عدد من الباحثين المهتمين بدراسة العصور البرونزيّة، فإن بلاد كنعان كانت ذات حدود تعارف عليها سكانها مع سكان ممالك ودول الجوار، وهي لا تخرج كثيرا عما تم تقديمه أعلاه، وأن أي اكتشاف جديد له دلالة على حدود هذه المنطقة سوف لا يؤدي إلى تغيير جذريّ في الحدود التقريبيّة المرسومة حتى اللحظة (شكل 3).



شكل 3: الحدود المفترضة لبلاد كنعان، عن google earth، إعداد المؤلف.

المشهد الاجتماعي الكنعاني: من نظام القبيلة البسيط إلى النظام المدنيّ المعقد

عاش الكنعانيّون في المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر (EBIA) في قرى زراعيّة صغيرة المساحة نسبياً كان يسودها نظام القبيلة؛ ومع مرور الزمن وبسبب تطور تركيبتها الاجتماعيّة وازدهار اقتصادها فقد نمت بعض هذه القرى في أواخر المرحلة (ب) (EBIB) لتشكل بواكير الدويلات-المدن. وقد امتازت بلاد الشام خلال المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر (EBII-III) بسيادة نظام الدويلة-المدينة التي أرخت بظلالها على واقع الحياة اليوميّة؛ وأفضت إلى انتعاش اقتصادي، وإلى حضور سياسي إقليمي.

ولكن، مع بداية المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (EBIV) هُجرت معظم الدويلات-المدن، وبالتالي انهار نظام الدويلة-المدينة الكنعانيّة ليحل مكانه من جديد نظام القبيلة المرتبط مع النظام الاقتصادي البسيط (الزراعة البعليّة، والرعي). وقد عُزي انهيار نظام الدويلة-المدينة في هذه المرحلة إلى أمرين اثنين، الأول: حدوث كارثة طبيعية متمثلة في قلة الأمطار الموسميّة لمدة زمنيّة طويلة، حيث أدت إلى حدوث الجفاف والقحط؛ وبالتالي فإن هذه الكارثة أثّرت على التوازن الاقتصادي للمجتمعات المحليّة. وبسبب تداعيات هذه الكارثة فإنه من المحتمل بأن الفوضى كانت سيّدة الموقف، وبالتالي نشبت الحروب بين التجمعات السكنية لتأمين ما يتيسر من وسائل العيش؛ الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تدمير عدد كبير من المدن وإلى تغيير نمط الحياة.

أما الأمر الثاني: فإنه يتمحور حول تنظيم حملات عسكريّة على بلاد كنعان من مصر أو من القبائل البدويّة التي كانت تستوطن جبل بشرى الواقع في سوريا. ومن الراجح بأن هذه الحملات قد أدت إلى تدمير معظم المدن الكنعانيّة، وإلى نهب ثرواتها، وإلى قتل أو تشريد عدد كبير من سكانها. وبعد حوالي ثلاثة قرون من التراجع في النظام السياسي المحلي، عاد نظام الدويلة-المدينة من جديد مع بداية العصر البرونزي المتوسط (MB)، فأعيد سكن المدن المهجورة، وأسست مدن جديدة بمساحات أوسع مما كانت عليه في العصر البرونزي المبكر، وانتعش الاقتصاد، وتطورت الأبنية المدنيّة والدينيّة والعسكريّة، وتم اختراع الكتابة الهجائية (إبراهيم، 1990، ص 58-94؛ ياسين، 1991؛ الهودلية، 2004).

لقد ترافقت بداية ونهاية العصر البرونزي المتأخر (LB) في بلاد الشام مع أحداث تاريخيّة أدت إلى تدمير عدد من الدويلات-المدن، وإلى تغيير في التركيبة السكانيّة المحليّة؛ أهمها: طرد الهكسوس من مصر في حوالي عام 1550 ق.م، وتتبع فلولهم من الجيش المصري بقيادة أحمس الأول؛ وتوغل شعوب جدد في فلسطين بحدود 1200 ق.م. وعلى الرغم من حالة الفوضى والدمار التي شهدتها منطقة جنوبي بلاد الشام نتيجة ملاحقة المصريين للهكسوس، إلا أن سكانها تمكنوا من إعادة بناء مدنهم وتحصينها، وعاشوا في مدن وقرى إلى جانب مجتمعات بدوية ومجموعة من الجاليات المصريّة التي كانت غالبيتها حاميات عسكريّة (كفافي، 2019، ص 14).

ولتوضيح مصطلح الدويلة-المدينة، والذي يشير إلى نظام اجتماعي وسياسي معقد، فتجدر الإشارة إلى أنه كان يوجد في جنوبي بلاد الشام عشرات من المدن في نفس الوقت، وكل واحدة منها كانت تشكل دويلة من جهة؛ وأن كل دويلة-مدينة تكونت من مركز حضري أستخدم مقراً للحاكم، ومن عدة قرى تقع في محيطه الجغرافي القريب من جهة أخرى.

وتباينت هذه الدويلات-المدن فيما بينها من حيث المساحة، وعدد القرى التابعة لها، وعدد سكانها، بالإضافة إلى دورها السياسي المحلي والإقليمي؛ ولكنها اشتركت بوجود المعبد، والسوق، والبناء الإداري/ القصر، والتحصينات الدفاعية في الغالب (Finkelstein, 2013, p. 13). وقد اقترح فوه وسافاج وفالكونر وهاريسون تسمية هذه الدويلات-المدن بمشيخيات (Chiefdoms)؛ وذلك لعدم استقلاليتها السياسيّة الكاملة بسبب تبعيتها لنظم سياسية في الدول المجاورة، ولمحدودية مساحتها، وقلة عدد سكانها، ولعدم قدرة حكّامها (شيوخها) على المناورة مع ملوك دول الجوار ومع أقرانهم من الحكّام المحليّين. وأن هذه المشيخيات كانت تحكم بنظام قبلي، وأن شيوخها لم يتمتعوا بسلطة مطلقة في مجتمعاتهم، وأن سلطتهم كانت ضعيفة (Pfoh, 2019, p. 249-257; Savage, Falconer & Harrison, 2007).

ولكن كفافي وقف على النقيض ممن قالوا بأن المراكز الحضرية الشاميّة خلال العصور البرونزيّة كانت لا تعدو كونها مشيخيات، وذلك لأنها امتلكت كل أو معظم مكونات الدويلة-المدينة أسوة بمثيلاتها في مصر وبلاد الرافدين من نفس الفترة الزمنية، آخذين بعين الاعتبار بأن الظروف التي نشأت فيها هذه الدويلات-المدن في منطقة الشرق القديم متباينة؛ وبالتالي كان لا بد بأن يكون بينها اختلافات من حيث المساحة، وعدد السكان، والدور السياسي المحلي والإقليمي، وكذلك نتاجها الحضاري الفكري والمادي (Kafafi, 2011).

عُرف حكام الدويلات-المدن الكنعانيّة خلال العصر البرونزي المتأخر في المراسلات المصرية بلقب حزانو (hazannu) – أي رئيس بلدية - أسوة بحكام المدن والبلدات الواقعة داخل الحدود المصرية، في حين أنهم عُرفوا في الوثائق غير المصرية بلقب ملوك (sarru) (Na’aman, 1996, p. 20). ونستدل على ذلك من عدة رسائل، منها على سبيل المثال لا الحصر: رسالة موجهة من الملك الميتاني إلى ملوك الدويلات-المدن الكنعانيّة تنص على: "إلى ملوك أرض كنعان ..." (Maron, 1992, p. 16, 100)؛ ومن رسالة رب هادي (Rib-Haddi) ملك مدينة صور إلى الملك المصري تنص على: "... الشخص الذي هاجم أراضي الملك هو ملك صيدا، وملك حاصور هجر منزله والتحق بالعبيرو ..." (Rainey, 1996, p. 8). وعلى الرغم من أن مصطلح "الملك" كان دارجاً في منطقة بلاد الشام إلا أنّ فوه وهاندي رأيا بأن هذا المصطلح لم يوازِ نفس المستوى الاجتماعي والسياسي لمصطلح الملك في مصر وبلاد ما بين النهرين؛ وإنما كان يدل في بلاد الشام على زعيم قبلي، وليس على رئيس دولة له سلطة حقيقيّة ومستقلة على مجتمعه (Pfoh, 2019, p. 253; Handy, 1994, p. 112).

ومن المعتقد بأن الملك في جنوبي بلاد الشام كان يتربع على عرش دويلته طيلة حياته ما لم يتمرد على النظام السياسي المصري، وما لم يهزم في حرب داخليّة مع الدويلات-المدن المحليّة

أو دول وممالك الجوار، أو تثور عليه مدينته وضواحيها وتقتله أو تخلعه عن منصبه (Pfoh, 2019, p. 254; Na'aman, 2011, p. 283). وبالاعتماد على رسائل تل العمارنة التي كتبت على مدار 25 سنة (من سنة الحكم الثلاثين للملك أمنحوتب الثالث وحتى سنة الحكم الثالثة للملك توت عنخ آمون)، فإن عدد الملوك الذين حكموا الدويلة-المدينة الواحدة هو ملك واحد إلى ثلاثة ملوك؛ ومثال ذلك أن مدينة القدس حكمت بواسطة عبدي حيبا، كما حُكمت مدينة تل الصافي (Gath) بواسطة شوارداتا، وعبدي اشتارتي؛ ومدينة جيزر (أبو شوشة) حُكمت بواسطة ملكي-إيلو، ويبوحو، وبعلو-دانو؛ وكذلك مدينة تل الدوير (Lachish) حُكمت بواسطة زمريدا، وشبتي-بعلو، ويابني-إيلو (Na'aman, 2011, p. 283).

الحالة السياسيّة: استقلاليّة محليّة أم تبعيّة خارجيّة؟

من المعلوم بأن جنوبي بلاد الشام خلال العصور البرونزيّة لم يشهد نظاماً سياسياً مركزياً أسوة ببلاد الرافدين ومصر، وإنما ساد فيه نظام الدويلات-المدن؛ الأمر الذي أضعفها أمام تحديات وأطماع دول الجوار. وبسبب غياب المصادر الكتابيّة ذات الصلة بهذه المنطقة خلال العصر البرونزي المبكر، وندرتها خلال العصر البرونزي المتوسط، فإنه من الصعوبة معرفة فصول المبادئ السياسيّة التي اعتمد عليها ملوك هذه الدويلات-المدن لتنظيم وإدارة علاقاتهم الداخليّة والخارجيّة.

ولهذا، فقد طُرحت فرضيتان حول الحالة السياسيّة في جنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر، تنص أولاهما: على أن كل دويّلة-مدينة شكّلت وحدة سياسيّة منفصلة عن الدويلات-المدن الأخرى؛ أما الثانية فتنص: على أن ملوك دويلتين أو أكثر واقعة في نفس المحيط الجغرافي قد أبرمت فيما بينها حلفاً سياسيّاً وعسكرياً (الهودلية، 2004، ص 500-503).

وتمتعت بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتوسط بالحريّة السياسيّة في ظل استمرار نظام الدويلات-المدن الذي كان سائداً في العصر السابق، إلا أن المشهد السياسي قد تغير فيها بشكل ملحوظ خلال العصر البرونزي المتأخر بسبب التدخل العسكري والإداري المصري (إبراهيم، 1990، ص 89-110؛ كفافي، 2019، ص 14: Buck, 2019, p. 27). وطرح فنكلشتاين ونعمان، وذلك بالاعتماد على نصوص مصرية من القرنين التاسع والثامن عشر قبل الميلاد بالإضافة إلى رسائل تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، بأن جنوبي بلاد الشام خلال العصرين البرونزي المتوسط والمتأخر كان يضم كيانين سياسيّين كبيرين: الأول في الشمال بزعامة تل بلاطة (Shechem)، والثاني في الجنوب بزعامة القدس (Ur-Salim). وقد كان الكيان السياسي الشمالي خلال العصر البرونزي المتأخر متمرداً على السياسة المصريّة، في حين أن الكيان الجنوبي كان تابعاً وخاضعاً للنفوذ المصري (Finkelstein, 2013, p. 13-21; Na'aman, 1996, p. 19). واقترح فنكلشتاين بأن تحالف الشمال كان يضم كلاً من تل بلاطة (ولها زعامة هذا التحالف)، وتل أبو شوشة (جيزر)، وجات الكرمل (Ginti-Kirmil)، وتل قامون (Yokneam)، وتل المقرقش (Anaharath)، وطبقة فحل (Pehel = Pihilu)، وتل

السامرة (Shimron)، وتل المتسلم، وتل رحوب (Rehib)، وعكا (Acco)، وتل كيسون (Achshaph)، وتل القدح (Hazor).

وبالتالي، فإنه يمكن القول بأن تحالف تل بلاطة قد سيطر على مساحة واسعة تمتد من عشترة في الشمال الشرقي حتى جنوب تل أبو شوشة بما فيها الطرق التجاريّة التي كانت تربط مصر مع سوريا وبلاد ما بين النهرين. ومن الواضح بأن تحالف بلاطة قد مارس ضغوطاً على المركز الإداري المصري الواقع في بيسان، وهدد بقطع تواصله مع المركزين الإداريّين المصريّين الواقعين في يافا وغزة. ولأن مصر شعرت بقوة هذا التحالف وتأثيره على مصالحها فقد طالبت السلطات المصريّة باعتقال لابايو (حاكم تل بلاطة وزعيم هذا التحالف) بالإضافة إلى حكام الدويلات-المدن المنضوية تحت لوائه. وبالفعل، فقد تم القبض على لابايو، ومن ثم قتله؛ ولكن قتله لم يربك هذا التحالف كثيراً، حيث أبقى أبناؤه على قوة هذا التحالف من بعد والدهم. ولكن المصريون تمكنوا لاحقاً من تفكيك الروابط السياسيّة بين حكام دويلات-مدن هذا التحالف (Finkelstein, 2013, p. 13-20).

كانت بلاد كنعان خلال العصر البرونزي المتأخر غير مستقرة، وقد شهدت تمردات عدة من حكام الدويلات-المدن المرغمين على تبعيتهم للنظام المصري، بالإضافة إلى ازدياد رغبة الحثيين بالسيطرة على منطقة النفوذ المصري وسلخها عن مصر (كونتو، 1997، ص 70-71). وتعرضت بلاد كنعان خلال هذا العصر لعدة حملات عسكريّة من الدولة المصرية الحديثة، بالإضافة إلى نشوب كثير من الحروب الداخليّة بين الدويلات-المدن وحلفائهم من العبيرو. ومن أهم الحملات وأشدها ضراوة تلك التي قام بها تحتمس الثالث، ويرجع السبب الرئيس في تنفيذها إلى حدوث تمردات عدة من حكام الدويلات-المدن الكنعانيّة مما ألحق الضرر بالمصالح الاقتصاديّة والعسكريّة المصرية. ولعل أهم هذه الحملات العسكرية لهذا الملك كانت الحملة التي واجه فيها تحالف الحكام الكنعانيين تحت زعامة حاكمي مدينتي النبي مند (Qadish) وتل المتسلم، بتحريض من الدولة الميتانية.

تعرف هذه الحملة باسم معركة مجدو، وقد التقى الجمعان في معركة قصيرة عام 1468 ق.م في سهل مرج بن عامر، فانهزم التحالف الكنعاني وهرب من نجا ليتحصن في مدينة تل المتسلم ذات الأسوار المنيعة، فضرب الجيش المصري حولها حصاراً مشدداً دام سبعة أشهر عانى سكانها خلالها ظروفاً قاسية. ومع أن تحتمس الثالث كان يصبو إلى هزيمة هذه المدينة، إلا أنه – على ما يبدو – لم يكن على عجلة من أمره لتسديد الضربة القاضية لها، وذلك لأن جيشه كان مشغولاً بحصاد محاصيل السهول المحيطة. وفي نهاية المطاف آثرت المدينة الاستسلام على الاستمرار في المقاومة المرتبطة مع معاناة حياتيّة قاسية. وبعد سيطرة تحتمس الثالث على المدينة، قام بتكليف حاكم محلي ليتولى إدارة شؤونها قبل أن يواصل المسيرة للإجهاز على باقي مدن التحالف.

وكان من نتائج هذه الحملة، بالإضافة إلى إعادة إخضاع المدن الكنعانيّة للنفوذ المصري، أن أخذ معه أبناء الحكام وإخوانهم كرهائن، وكذلك عاد بالغنائم الكثيرة التي شملت الغلال، والعتاد العسكري، والمواشي، والأحجار الكريمة، والمعادن الثمينة (طه، 1999؛ & Steindorf

Seele, 1957, p. 53-56). وقد قام ابنه أمنحوتب الثاني وكذلك أحفاده بتنظيم وقيادة حملات عسكريّة عدة على دويلات-مدن بلاد الشام لإخماد حالات التمرد، وكانت نتائج هذه الحملات لصالح الملوك المصريين، بالإضافة إلى حصولهم على كثير من الغنائم التي كانت تزيد من ثراء الدولة المصريّة (Steindorf & Seeele, 1957, p. 63-81).

ولكي يضمن المصريون عدم حدوث تمرد في أرض كنعان، وللحفاظ على أمن طرقهم التجارية، فقد عمدوا إلى ترك حاميات عسكريّة مصريّة في بعض المدن الكنعانيّة. ونستدل على ذلك من خلال رسالتي عبدي حيبا إلى الملك المصري: رقم 286، و287، حيث يقول في الرسالة رقم 286: "وليعلم الملك سيّدي، أنه بعد أن وضع حامية عسكريّة (ربما المقصود هنا أورسالم/ القدس)، أخذ يَنخَم كل أفرادها ... أيها الملك، سيدي، لم تعد هناك حامية عسكريّة. فليت الملك يهتم ببلاده". ويقول في الرسالة رقم 287: "إن وجدت قوّة عسكريّة في هذه السنة، فإن البلّدان والحكّام التابعين سيكونون مع الملك، سيّدي، وإن لم توجد قوّة عسكريّة، فلن تكون هناك بلدان ولا حكام مع الملك".

وعلى الرغم من وجود هذه الحاميات إلا أنه كانت تحدث حروب داخليّة وتمردات في العمق الكنعاني، ونستدل على ذلك من خلال رسالة تل العمارنة رقم 290 -على سبيل المثال لا الحصر- حيث تنص على الآتي: "أنظر إلى الفعل الذي ارتكبه ملكي إيلو (ملك/ حاكم مدينة جزر) وشووَرات (ملك/ حاكم مدينة شوردات) بحق الملك، سيّدي. لقد نظما قوّات مدينة جزر وقوّات مدينة جيمت وقوّات مدينة قِلتُ. إنهما يحتلان مدينة روبوت ... إضافة إلى مدينة اسمها بيت نينورتا تابعة لبلاد أورسليم، مدينة تابعة للملك وصارت إلى جانب مدينة قِلتُ" (إسماعيل، 2005، ص 46-50، رسالة رقم 286، ورسالة رقم 287، 290).

وقد أوضحت رسائل تل العمارنة بان ملوك الدويلات-المدن الكنعانيّة كانوا يُعيّنون من الملك المصري، وكان لزاماً عليهم عند تعيينهم لهذا المنصب أن يحلفوا باسم الملك كدليل على الطاعة والولاء (Helch, 1971, p. 246-247). ويقول فوه: أنه عند التمعن في أسلوب كتابة رسائل تل العمارنة، فإن المرء يستنتج بأن حكام بلاد الشام كانوا ناشطين سياسياً، ولكنهم لم يكونوا رجال سلطة مستقلين، بل تابعين للنظام السياسي المصري. وكان على هؤلاء الحكام حماية مجتمعاتهم التي يمثلونها أمام العالم الخارجي، وتوفير أمنها ورفاهيتها. وقال بأن دور هؤلاء الحكام لم يختلف كثيراً عن دور الشيوخ والمخاتير في المدن والقرى الفلسطينية خلال فترة الحكم العثماني والاستعمار البريطاني (Pfoh, 2019, p. 252). ونستدل على تدخل الملوك المصريين في تنصيب حكام للمدن الكنعانيّة من خلال مراسلات تل العمارنة نفسها، حيث يقول عبدي حيبا في الرسالة رقم 286: "... أنظر! أنا لم يضعني أبي ولا أمي في هذا المكان، بل يد الملك القويّة هي التي أدخلتني إلى بيت أبي ..."، ويقول نفس الحاكم في الرسالة رقم 285: "أنظر! أنا لست حاكما؛ بل رجلاً مجنداً لدى الملك سيّدي. لماذا لم يرسل الملك رسولاً بأقصى سرعة؛ كما كان يرسل سابقاً في مثل هذه الأحوال؟ ... ليت الملك يهتم بأمر عبدي حيبا خادمه". (إسماعيل، 2005، ص 45، 48)؛ ويقول أبي ملكو ملك مدينة صور في الرسالة رقم 149: "... الملك، سيدي، كلفني بحراسة

مدينة صور، خادمة الملك، وقد أرسلت رسالة عاجلة إلى الملك، سيّدي، لكنه لم يرسل لي أيّة كلمة ..." (Rainey, 2014, p. 753)؛ ويقول بيرياوازا ملك مدينة دمشق في الرسالة رقم 195: " ... أنا بالفعل، جنباً إلى جنب مع قواتي ومركباتي، مع إخوتي والعبيرو، سوف أسير [أقود] الرماة، في أي مكان يأمر به الملك، سيّدي ..." (Pfoh, 2019, p. 251).

وبهذا فإننا نستنتج بأن منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصرين البرونزي المبكر والمتوسط كانت تشهد استقلاليّة سياسيّة عن دول الجوار في ظل عدم تشكيل كيان سياسي مركزي، وأن واقعها السياسي خلال العصر البرونزي المتأخر كان يتأرجح بين الخضوع للنظام المصري حيناً والتمرد عليه حيناً آخر.

دار خلال العقود الأخيرة نقاش واسع حول الأسباب الكامنة وراء تدمير عدد كبير من مدن الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط مع نهاية العصر البرونزي المتأخر. وقد عزا الباحثون هذا الدمار إلى عوامل كثيرة، منها: قدوم مجموعات محاربة، وإلى حروب داخلية واسعة النطاق، وكذلك إلى كوارث طبيعيّة متمثلة في التغير المناخي والزلازل (Knapp & Manning, 2016). وعزا وليم أولبرايت (وهو توراتي، وكان مديراً للمدرسة الأمريكية للآثار في القدس) تدمير عددًا من المدن الكنعانيّة في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى غزو القبائل الإسرائيلية لفلسطين تحت قيادة يوشع بن نون (Albright, 1935, p. 10-18). ولكن، فنكلشتاين يعتقد بأن الدويلات-المدن الكنعانية في جنوبي بلاد الشام لم تنتهِ مع نهاية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتأخر (1200 ق.م.)، وإنما استمر عدد منها لأكثر من قرن خلال المرحلة الأولى من العصر الحديدي، مثل: تل المتسلم، وبيسان؛ وقد عزى التدمير الذي لحق بالدويلات-المدن الكنعانيّة في أواخر هذه المرحلة إلى شعوب البحر، أو إلى هجمات العبيرو (المشردين/ قطاع الطرق) بتحالفات مع حكام بعض الدويلات-المدن (Finkelstein, 2013, p. 21-22).

الخاتمة

شكّلت منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصور البرونزيّة كياناً اجتماعيًا وسياسيّاً بحدود جغرافيّة متعارف عليها بين سكان منطقة الشرق القديم، وقد عرفت هذه المنطقة في الوثائق الشاميّة، والمصريّة، والأكاديّة، والحوريّة باسم بلاد كنعان، وأن العنصر البشري الرئيس فيها كان الكنعانيون. وتمتعت هذه المنطقة خلال العصرين البرونزي المبكر والمتوسط بنوع من الاستقلاليّة السياسيّة عن دول الجوار؛ حيث ساد فيها نظام الدويلات-المدن الذي امتاز بقيام ملك كل مدينة بإدارة شؤون مدينته والقرى التابعة لها بمعزل عن ملوك المدن الأخرى؛ وبهذا فإن سكان هذه المنطقة لم يتمكنوا من تطوير نظام سياسي مركزي (ملك واحد لكل البلاد بمدينة عاصمة) أسوة بمصر وبلاد ما بين النهرين. وكان لنظام الدويلات-المدن تداعيات عدة، أهمها: بروز تجاذبات انعكست على طبيعة العلاقة بين بعض الملوك أفضت إلى التنسيق السياسي، والأمني، والعسكري لمجابهة التحديات الأمنيّة المحليّة والإقليميّة؛ وإلى حدوث تناقضات في المصالح بين بعض ملوك هذه المدن قادت في كثير من الأحوال إلى نشوب حروب داخليّة.

أما خلال العصر البرونزي المتأخر، فإن هذه المنطقة قد فقدت جزءاً كبيراً من استقلاليتها السياسيّة، وأصبحت تابعة للنظام السياسي المصري. ويتضح لنا من خلال رسائل تل العمارنة بأن ملوك هذه المدن كانوا منقسمين على أنفسهم، فمنهم من كان يدين بالطاعة للنظام المصري، ومنهم من كان متمرداً عليه ويناهض وجوده في بلادهم. ومع تجلي إدراك النظام السياسي المصري للأهمية الاقتصاديّة والأمنيّة لهذه المنطقة فقد عمد كثير من ملوك الدولة الحديثة إلى تسيير حملات عسكرية لإخماد حركات التمرد، وتعيين ملوك محليين يدينون بالولاء السياسي لهم، وتثبيت حاميات عسكريّة في بعض مدنها الرئيسة. وعلى الرغم من انهيار النظام السياسي الكنعاني في هذه المنطقة مع أواخر العصر البرونزي المتأخر – بداية العصر الحديدي إلا أن سكانها بقوا في أرضهم صامدين واستمروا بالحياة عليها دون انقطاع عبر العصور اللاحقة.

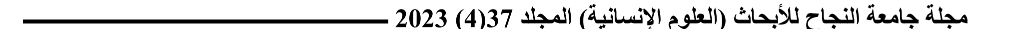
وبناء على الشواهد الأثرية، فإننا ننفي فرضية كل من ليمكه ووتنبيرغ (Lemche, 1991, p. 39, 52; Wittenberg, 1991) التي تفيد: بأن الكنعانيين لم يُشكّلوا في حياتهم كياناً عرقيّاً وإنما كانوا أعضاء في نظام اجتماعي وسياسي، وأنه لم يكن لديهم فكرة واضحة عن مساحة بلادهم وحدودها؛ ونقبل رأي نَعمان وفنكلشتاين (Na'aman, 1994; Finkelstein, 2013) الذي يفيد بأن بلاد كنعان كانت كياناً سياسيّاً ذو حدود سياسيّة متعارف عليها مع دول وممالك الجوار، وأن غالبيّة سكان هذا الكيان كانوا متجانسين عرقيّاً وتربطهم صلة الدم. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الشواهد تؤكد على أن سكان منطقة جنوبي بلاد الشام كان لهم هُوية ميزتهم عن بقية الشعوب التي عاشت في نفس الإطار الزماني في منطقة الشرق القديم. وربما يعود السبب في عدم ذكر حكام الدويلات-المدن في مراسلاتهم الخارجية، وخصوصاً مع النظام السياسي المصري، بأنهم كنعانيون لأن كل واحد منهم كان يهتم بشؤون مدينته فقط؛ وهو بهذا يعبر عن كيانه الجيو-سياسي الخاص به، وليس عن الكيان الاجتماعي الجمعي في عموم جنوبي بلاد الشام.

Sources and References (Arabic & English)

- Agranat-Tamir, L., Waldman, Sh., Martin, M., Gokhman, D. ….. Reich, D. (2020). The genomic history of the Bronze Age Southern Levant. *Cell*, 181: 1146-1157.
- Albright, G. W. (1935). Archaeology and date of the Hebrew conquest of Palestine. *Bulletin of the American School of Oriental Research*, 58: 10-18.
- Albright, W. (1971). *The archaeology of Palestine*. Gloucester: Peter Smith.
- Al-Houdalieh, Salah. (2004). *Anmat al-istiqrar khilal al-'asr al-bronzi al-qadim fi filastin.* Majalet jamea't al-najah ll-abhath (al-'ulum al-ensaniah, mujalad 18 (2): Ss. 483-512.

- Al-majdi, Khaza'al. (2001). *Al-mu'ataqadat al-kana'aniya.* Aman: Dar al-shuruk ll-nashir w-al-tawzia'.
- Bienkowski, P. (1989). Prosperity and declice in Late Bronze Age Canaan: A reply to Liebowitz and Knapp. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 275: 59-63.
- Buck, M. (2019). *The Canaanites: their history and culture from texts and artifacts*. Eugene: Cascade Companions.
- Finkelstein, I. 2013. *The forgotten kingdom: The archaeology and history of northern Israel*. Atlanta: The Society of Biblical Literature.
- Golani, A. (2013). The transition from the Late Chalcolithic to the Early Bronze I in Southern Canaan – Ashqelon as a case for continuity. *Paleorient*, 39 (1): 95-110.
- Handy, L. (1994). *Among the host of heaven: The syro-Palestinian pantheon as bureaucracy*. Winona Lake: Eisenbrauns.
- Hasel, M. (2009). Pa-Canaan in the Egyptian New Kingdom: Canaan or Gaza? *Journal of Ancient Egyptian Interconnections*, 1 (1): 8-17.
- Helch, W. (1971). *Die beziehungen Aegypten zu Vorderasianim 3. und 2. Jahrtausend v. Ch*. 2nd rev. ed. Aegyptologische Abhandlungen 5. Wiesbaden: Harrassowitz.
- Isma'il, Faruk. (2005). *Akhbar al-Quds fi murasalat al-amarna.* Al-ma'rifa, 505: Ss. 41-54.
- Kafafi, Z. (2011). Neither early bronze cities nor states in the south of the Levant: Another perspective. *Syria, Archeologie, Art et Histoire*, 88: 47-57.
- Kafafi, Zeidan (2011). *Bilad al-Sham fi al-Usur al-qadima (min usur ma qabl al-tareekh hata al-Iskander al-Maqduni). Aman: Shruq*.
- Kafafi, Zeidan (2019). *Filistin khilal al-'Asr al-Hadidi al-awal (nahu 1200-1000 qabl el-milad): Dirasa muqarna baen al-riwayah al-tawratiyah w-al-bayanat al-athariyah*. Adumatu, 39: Ss. 7-28.

- Kennedy, T. (2013). *A demographic analysis of Late Bronze Age Vanaan: Ancient population estimates and insights through archaeology*. PhD dissertation, University of South Africa.
- Knapp, A., & Manning, S. (2016). Crisis in context: The end of the late bronze age in the eastern Mediterranean. *American journal of archaeology*, 120 (1): 99-149.
- Kuntu, J. (1997). *Al-hadara al-finiqia*. Tarjamat Muhammad Abdelhadi Sha'ira, w-muraja'at Taha Hussein. Al-qahira: Al-Haya'a al-masria al-'amma ll-kutub.
- Lemche, N. (1991). The Canaanites and their land. The tradition of the Canaanites. *Journal of the study of Old Testament Supplement Series*, 110. Sheffield: JSOT Press.
- Maisler, B. (1986). Lebo-hamath and the northern boundary of Canaan. In S. Ahituv and B. Levine (eds.), *The early biblical period: historical studies*. Jerusalem: Israel Exploration Society. Pp. 189-202.
- Mara'i, A'id. (2000). *Mamlaket Allalakh*. Majalet dirassat tareekhia, 71-72: Ss. 32-52.
- Maron, W. (1992). *The Amarna letters*. Baltimore: Johns Hopkins University.
- Moawiyah, Ibrahim. (1990). *Filistin min aqdam al-usur ela al-qarn al-rabi' qabl el-milad*. Al-mawsu'a al-filistinia. Al-mujalad al-thani. Ss: 1-138.
- Muniz, A. (2007). Feeding the periphery: modeling Early Bronze Age economies and the cultural landscape of the Faynan District, southern Jordan. PhD dissertation, University of California, San Diego.
- Na’aman, N. (1996). The contribution of Amarna letters to the debate on Jerusalem’s political position in the tenth century B.C.E. *Bulletin of American School of Oriental Research*, 304: 17-27.
- Na’aman, N. (2011). The Shephelah According to the Amarna Letters. In Israel Finkelstein and Nadav Na'aman (eds.), *Fire Signals of*



Lachish: Studies in the Archaeology and History of Israel in the Late Bronze Age, Iron Age, and Persian Period in Honor of David Ussishkin. Winona Lake, IN: Eisenbrauns. 281-300.

- Na'aman, N. (1994). The Canaanites and their land. *Ugarit-Forschungen*, 26: 397-418.
- Pfoh, E. (2019). Prestige and authority in the southern Levant during the Amarna age. In A. M. Maier, I. Shai and C. McKinney (eds.), *The late bronze and Iron age of southern Canaan (archaeology of the biblical worlds 2*. Belin: de Gruyter: Pp 247-261.
- Rainey, A. (1963). *A Canaanite at Ugarit. Israel Exploration Journal*, 13: 43-45.
- Rainey, A. (1996). Who is a Canaanite? A review of the textual evidence. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research,* 304: 1-15.
- Rainey, A. (2014). *The El-Amarna correspondence: A new edition of the cuneiform letters from the site of El-Amarna based on collations of all extant tablets. HdO, 110*; 2 vols. Eds. W. Schneidewind and Z. Cochavi-Rainey. Leiden: E. J. Brill.
- Savage, St.; Falconer, S., & Harrison, T. (2007). The early bronze age city states of the southern Levant: Neither cities nor states. In Thomas Levy, P. M. Michele Daviau, Randal Younger, & May Shaer (eds.), *Crossing Jordan, north American contributions to the archaeology of Jordan*. London and New York: Routledge, pp. 285-300.
- Singer, I. (1988). Memeptah's campaign to Canaan and the Egyptian occupation of the southern coastal plain of Palestine in the Ramesside period. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, 269: 1-10.
- Steindorf, G. & Seele, K. (1957). *When Egypt Ruled the east*. Chicago: The University of Chicago Press.

– Taha, Hamdan. (1999). *Ma'rakat Megiddo.* Al-Karmel, 61: Ss. 240-251.

– Tubb, J. (1998). *Canaanites. People of the past series*. OK: University of Oklahoma Press.

– Wittenberg, G. (1991) "…. *Let Canaan be his slaves (Gen 9: 26). Is ham also cursed?* JTSA 74: 45-56. Reprinted pages 25-42 in Resistance Theology in the Old Testament: Collected Essays, edited by Gunther Wittenberg. Pietermaritzburg: Cluster Publication, 2007.

– Yasin, Khayr. (1991). *Junubi bilad al-sham, tarikhah w-atharah fi al-'usur al-bronziya.* Amman: lajnet tarikh al-Urdon.